La castration mentale

الخصَاء الذّهْنيّ

حرية التعبير من بين الخصائص الأساسية للنظام الديمقراطي : فهي تعني أنه ليس للمواطن أن يكبحَ كلمته المكتوبة أو المنطوقة، وأن بإمكانه بالتالي أن يعلن دون خشية ولا حدود عن نشاطه الداخلي . فالإنسان الحرُّ هو الإنسان الذي لا فرق لديه بين الحميم والعمومي ما دام لا شيءَ يمنعه من أن يطابق ظاهره مع حقيقته .هذه الهوية للتفكير الخاص والتعبير عنه يؤسسان شخصَ المواطن ويمثل أساسَ القيم الجمهورية منذ الثورة الفرنسية.

فالتعبير بحرية في مجتمع حر، هو أن تخلق حركة الهوية التي تستدعي حركة مماثلة لدى الآخر التي تخلق، بسبب التماثل، الرابطَ الاجتماعي. وبمجرد أن يصبح الكلام والتفكير مُتطابقيْن، فإن التطابقَ يصدق على الجسد الاجتماعي كما على الجسد الفردي، ويُنتج تفكيراً جماعياً تعبر عنه كلمة «الثقافة» بطريقة جيدة .هذه الثقافة بطبيعة الحال هي التعبيرُ المباشر عن التفكير، لكن ممارسة اللغة المشتركة تُغنيه بمجموع الذاكرة الواعية واللاواعية التي تحملها اللغة بمجرد تركيبها البسيط .فالثقافة هي تفكيرُ الجسد الاجتماعي.

لا يتعلق الأمر هنا بارتباط استعاري : إنه التأكيد على علاقة عضوية حقاً، هي التي فينا أصلُ ومنبعُ الإنساني والعلاقة الإنسانية .وهي أيضاً المصْدرُ الماديّ للمعنى لدى كل حياة وجميع الحيوان .يعلن الجسدُ الاجتماعي عن الثقافة بحركة مشابهة للحركة التي تحْملُ كل واحد منا على التعبير .ومن ثمَّ فإن طابعَ هذه الثقافة هو أنها مشروطة، هي الأخرى، بحريتها في التعبير.

بقدر ما نعُود إلى أبعد فترة سابقة، نجد أنّ هذه الحرية كانت دائماً معرّضةً للرقابة، محاربةً ومشوّهَة : إذ أن الجسد الاجتماعي كان مقطوعاً عن طبيعته المبدعة، مخصياً من جنْسانيته الذهنية، لصالح خالق لم تكن وظيفتُه الإلهية في الحقيقة سوى سياسية.

وعلى النحو ذاته الذي كانت فيه الروحُ منفصلةً عن الجسد، كانت الثقافة مفصولة عن الاجتماعي : لماذا ؟

كلُّ ما سبق يشجّعني على نقل هذا السؤال إلى أبعد نقطة ممكنة، لكنني أفعل ذلك لأنه يصرخ دائماً في الراهن.

إذا كان الثقافي والاجتماعي غيرَ منفصليْن بطبيعة الحال، فأيُّ معنى لانفصالهما ؟ ومن أين تأتي المهمة المستعجَلة لنقول ذلك هنا حتى نوضح طبيعة الزمن الحاضر في وقت يبدو أنّ الرقابة وصلتْ في النهاية إلى أن تختفيَ عن عالمنا الأوربي ؟

تحاصر الرقابةُ حرية التعبير، لكنها لا تستطيعُ شيئاً حيالَ حرية التفكير .إنها تقسّم الهوية بين الدخيلة والعلنية مما يدفعُ إلى استعمال لغة مزدوجة، تشوّش على العلاقة مع الآخر ومع الرابطة الاجتماعية . وفي المقابل تثير الرقابةُ، ما دام ضغطها واضحاً للعيان، مقاومةَ نفْس هؤلاء الذين تقمعُهم وتضاعف قوتهم.

لقد فهم النظامُ منذ أمد بعيد أن الرقابة على حرية التعبير لم تكن سوى السبيل الوحيد المتبقّي لديْه وأنّ على الرقابة، لكي تكون فعالة، أن تحاصر حرية التفكير، أيْ أن تكون في المكان الذي هو، في دخيلة كل واحد منا، رحمُ المعنى .لقد سمح الاختراعُ العبقري للدّين بأن يفرض علنية الإيمان كمعنًى باطني، وبأن يفصل من ثمة الروحَ عن الجسد وينزعَ من الفرد التحكمَ في دخيلته التي أصبحت مُستسلمة للتعالي، مما يبرر كوْنها موضوعَ سلطة القانون الإلهي .

كان الدين يقدّم معنى مشتركاً بالقدر الكافي بين الجميع لكي يسعد الشخصُ بممارسته باعتباره فرداً وباعتباره عضواً في الهيئة الصوفية، التي كانت تصل الرابطَ الاجتماعي لمجموعة المؤمنين بمجموعة الموتى وتصْعد حتى تبلغَ الأمراء والله .كان هناك إجماع روحي عجيب يوحّد بين جميع الناس الذين يتضامنُون في استسلامهم للإلهي.

والامتياز الذي لا يمكن مقارنته لهذا النظام الديني هو أنه كان يحلُّ الإرادة الداخلية للفرد محلَّ إرادة خارجية قادرة على أن تقدم في الوقت نفسه معنى للحياة وتبريراً للعبودية الإرادية .وكان الوعدُ بالخلاص وبالمساواة في الآخرة يُزيّن الفقر والظلم في الدنيا .وكان الله قادراً، من قبل، على أن ينقسمَ بين الجميع ويبقى كاملاً.

إن البرجوازية التي وجّهتْ لحسابها الخاص الثورةَ الوحيدة المستمرةَ، والناجحة بالتالي حتى اليوم، لم تكن ربما تشك في أنها، وهي تنشئ سلطة التجارة والصناعة، ستعطلُ شيئاً فشيئاً الصيرورة الدينية التي اختارتها مع ذلك بعد فترة وجيزة لتتكئ عليها .عندما نعوّض الخلاص في الآخرة بالاستهلاك الفوْري، فإن الأمر ينتهي بالاقتصاد إلى أنْ يتفوق على جميع المجالات الأخرى، بما فيها السياسة.

لا يستطيع النظام الاقتصادي، بدوره، أن يكون إلا مطلقاً وشرساً، لأن قيمَهُ اقتصاديةٌ بحتة .فالسوق لا يعرف قوانين أخرى غير قوانين السوق .ورأس المال مطالَبٌ بأن يتضاعف أو يضمحل؛ فهو لا يمكنه، بخلاف الله، أنْ ينقسم ويبقى كاملاً .فالفعالية معيارُه الوحيد، والتنافسُ حركتُه الاجتماعية الوحيدة.

والبرهان على ذلك يوجد في الظاهرة الحالية التي أصبح دمارُها مقبولاً من طرف الجميع إلى الحد الذي أصبح يتحكم فينا جميعاً بصيغة أو أخرى : فأنا أريدُ أن أتكلم عن الاعتقاد، الذي ساد في سنوات وجيزة، بأن الاقتصادَ هو الخالق المطلق لمجتمعنا، اعتقاد يعمل، مثلاً، على قبول البطالة كحتمية، ولكنه يستند في الحقيقة إلى قلبٍ للوسائل والأهداف.

عندما نعتبر الهدفَ هو الاقتصاد، الذي عليه أن يخدُمنا، فهذا معناه أننا نقبل بأن يتحوّلَ ما هو اجتماعي إلى سلعة، مع ما ينتجُ عن ذلك من محو القيم الإنسانية الأساسية للمساواة، والأخوة، والعدالة بل والحرية.

روايات الماركيز دو ساد وخاصة رواية 120 يوماً من أيام سدوم، مع الحسابات المجنونة للشهوات، تنذر بوضعية تصبح القيمُ فيها مُعوَّضَة بالاقتصاد .هذه الرواية حكاية تنبؤية.

«فالرابح»، بطل المجتمع الاقتصادي، يشبه بطلَ ساد .لا شيءَ يوقفه ما دام هو في ذاته المعيارُ والمثال.

وفي ظل الشمولية الاقتصادية التي ستزداد سيطرتُها، يتوقف المعنى عند أن «تربح» وأن تكون غنياً . وعلى العكس من المعنى الديني، الذي كان يمنحُ امتلاءً وكان محطّ رهان الناس، فإن المعنى الاقتصادي عبارة عن فراغ لا يعبئه الاستهلاك إلا من أجل أن يبعث فيه على الفور الشهية ذاتها للاستهلاك .

عندما يكون أساسُ المعنى هو السلعة، فإنه يصبح معرضاً للتلف السريع، لذلك يصبح من اللازم أن يُستهلَك باستمرار، ويُجدَّد .هذا المعنى، الموجودُ دائماً على طريق الظهور ـ الاختفاء، وقتَ اشتداد الأحداث، هو الفخُّ الذي يقع فيه اليوم مجتمعُنا : فهو لا يقترح علينا سوى مظاهر فيما نحنُ نظن أننا ندركُ الواقع.

نظامُ الفخّ هو الاختراع الذي يسمح للسلطة الاقتصادية بأن تحاصر حرية التفكير وهي تمارس عليه، ليس الانبهار بموضوع إيديولوجي، بل التدربَ على حركة لا يمكن مقاومتُها، حركةٌ تشدُّ وحداتُها المتتالية كلَّ انتباهه.

كان الاحتلال الديني للتفكير يتلازم مع الرقابة تجنباً لمناقشتها، ويتلازم الاحتلال الاقتصادي للتفكير مع رقابة عامة، تبعاً لكلمة الرقابة على المعنى[1] Sensureالتي نحتْتُها لتدل على الحرمان من المعنى.

فالأحداث الكبرى الأخيرة تشير إلى هذا التعارض، وإنْ نحن قارنّا بين أوضاع الشرق والغرب، فسنراه يتضح.

كلُّ واحد يعْلم أن عالمنا في أزمة .كان بإمكاننا الاعتقاد، منذ زمن قليل فقط، بأن الأمر يتعلق بنهضة منذ أن أصبح الجمودُ القديم للدولة يتحول إلى انبثاق يقول بأن السعادة ستكون، مرة أخرى، فكرةً جديدةً في أروبا.

لم يكن بإمكان هذا الانبثاق أن يكون سوى كاشف رهيب : فهو أظهر أن الاجتماعي، الذي لم يعد له اعتبار في الشرق بإيديولوجية لم تكن تعلن عن الانتساب إليه إلا من أجل قهره، لم يعد موجوداً إلا في شكل جسد يتعرض للتحلّل .وأظهر أن الديمقراطية التعددية والديناميكية للغرب كانت قناع جمود مُغلق على ذاته ولا قدرة لهُ البتة على تغيير التنافر القديم لأنظمة العلاقة الاجتماعية.

خلال أكثر من نصف قرن، جعلت الديمقراطيةُ الغربيةُ من نفسها النموذجَ الثقافي بامتياز مقابل الديمقراطية الشعبية .وانتصار الديمقراطية الغربية يجبُ أن يكون، تبعاً لذلك، انتصارَ جسد اجتماعي متطور بطريقة متناغمة على جسد معطوب بالرقابة الشمولية .لكنه من الواضح أن انتصار الغرب على الشرق ليس ثقافياً، ولا يطرح حتى مسألة الثقافة، ما دام الغربُ يصرح علانية بطابعه الاقتصادي.

والغريب هو أن نشاهد من خلال هذا الانتصار، لا التأكيدَ على الأسس الثابتة للديمقراطية، بل نشاهدَ، على العكس من ذلك تماماً، انهيارَ بعض القيم التي كنا ظننا، دون أن نثق، مع ذلك، فيها، أنها الضامنة للديمقراطية .

إن تفوق الغرب على الشرق لا يعود أبداً إلى النظام الذي كان يعِدُنا بالمظاهر القديمة : فالتفوق ليس أخلاقياً؛ ليس الحرية التي، بفضلها، ينتصر في الأخير، وليس حقوق الإنسان : إن تفوق الغرب على الشرق يكمن في اكتشاف وسيلة المناورة الباهظة الثمن لأنها ذكية، لا تؤلم، بارعة، لا مرئية وناجعة.

---

[1] نحت برنار نويل هذا المفهوم بوضع حرف S كبير بدلا من حرف C في بداية كلمة censure التي تعني الرقابة .وهو بذلك جمع بين كلمتي المعنى sens وكلمة الرقابة في كلمة واحدة جديدة Sensure .ونظراً لكون هذا النحت غير ممكن بالعربية، ترجمنا الكلمة بـ«الرقابة على المعنى».

رغم أن أنظمة الشرق الشمولية وُلدتْ من فكرة ثورية تُلائمها، فقد شعُرتْ بالخوف من هذه الفكرة التي كانت تقودها إلى التجديد، إلى المناقشة والاحتجاجات .وبدلاً من أن تتبع التجديد، اختارت أن تجمّد الفكرة وتلجأ إلى الترهيب، إلى القوة وإلى الكذب، وهي جميعها أسلحة سياسية .

أما الديمقراطية الغربية، ودون أن نقلل بالمناسبة من قوّتها، قامت تحديداً باختيار العكس من خلال الموافقة على ما يقودنا اليوم إلى الإجماع.

تمنعُ الشموليةُ المعارضةَ أو تقتل بالرصاص؛ أما الإجماع فيخفّف على الفور من المعارضة ولا يترك لها تأثيراً .وعندما يقوم الإجماع بهذا الفعل، يجمّد بالتأكيد الجدلية على نحو ما تفعل الشمولية، لكن بدون أن يمارس أيَّ ضغط.

للإجماع دورُ احتلال المتخيلِ ومسارِ المعنى : يدخل إلى الأول والثاني وينتشر فيه عن طريق الفعل المُعْدي الذي يسمح له أن يكون مختلطاً بكل ما تقترحه علينا وسائلُ الإعلام وتفرضه تحت الاسم الجميل لكلمة التواصل.

الإجماع، في العمق، إيديولوجية أغلبية المجتمع المُسمّى مجتمعَ الاستهلاك، الذي هو الحالة المؤقتة للديمقراطية الغربية .وظيفته هي ضمان الاندماج الكامل في هذه الديمقراطية عن طريق تزويد الجسد الاجتماعي بوهْم أنه يمثل تفكيره .على هذا النحو يعمل الإجماع على احتلال فضاء الثقافة فيما هو فقط أحد مصائب الفخّ الذي تفرض السلطةُ الاقتصاديةُ بواسطته الرقابةَ على التفكير في ديمقراطية لم يعد الشيء العمومي فيها يتعلق إلا تخيلياً بالمجال السياسي لأن هذا «الشيء»، وهو يتحول إلى دعائي، يكفُّ عن أن يكون عمومياً ولا يتبع بعد هذا إلا لسيادة وسائل الإعلام .إن مصادرة الممارسة الذهنية اليوم كما في كل زمن، لصالح اندماج يقوم على الاستعباد تجاه النظام السائد، تظل الأضمنَ للحفاظ على هذا النظام.

لجميع السلطات بطبيعة الحال إرادةُ أن تحافظ على نفسها، وقد أصبحت كلها، في هذا النطاق، مسكونة بحلم النزعة المطلقة .كانت أنظمة الشرق الشمولية اعتقدت أن الإيديولوجيا، باحتلالها دور الدين، ستنجحُ بالطريقة ذاتها في احتلال مكان المعنى في رأس مواطنيها .لقد أُفرغت هذه الإيديولوجيا من مضمونها مع الاحتفاظ بشكلها، مما جعل الغيابَ الذي كان من المفروض أن تخفيه، منذ ذلك الوقت، يصبحُ بالتدريج صارخاً .والمفعول الذي يبعث على الغضب لهذا الغياب سمَح في النهاية بتحوّل للنظام، لكنه يستمر في اللعب على نحو خطير لأنه يستدعي باستمرار مضموناً أصبح مفقوداً.

يَغرق الغربُ في هذا الفراغ، لكنه لا يأتي ليملأه إلا بسلعته .سنرى إنْ كانت السلعة تكفي لتُسكت شهية المضمون في الأجساد الاجتماعية التي تسعى، لحد الآن، إلى العثور على تعبير في ظل الممارسات المتقهقرة للوطنية، للدين أو للعنصرية بكل بساطة .عندما تكون الحاجة إلى المعنى ضرورية، تعود إلى الصيغ القديمة عن طريق الميْل المتقادم الذي تركته في اللاوعي الجماعي.

تعلم السلطة الاقتصادية أنها ديناميكية محض : نموُّها الدائم هو قيمتُها الوحيدة .وترجع قوة إثارتها إلى كون أن حركتها تتماهَى مع حركة الحياة، رغم أنها لا تشبه إلا مظهرها الآلي، الذي ليس سوى انجذاب نحو الموت، أما الحياة فهي بالضبط تحتاج إلى المعنى.

يجمع الاقتصادُ بين الحيوية والزيادة في السرعة : فهو يولّد على هذا النحو تعجّله إلى نهايته، لكنه لا يريد أن يعرف ذلك .أيْ أن المعنى بالنسبة للاقتصاد غيرُ مُحتمل ما دام أن المعنَى قد لا يعرف كيف يقدم نفسهُ إليه بطريقة أخرى إلا من أجل وضع الاقتصاد موضعَ التساؤل .وعند الحاجة إلى المعنى، فإن حركة الاقتصاد الذاتية هي التي يعْرضها الاقتصاد بصفتها هي المعنى.

لأجل ذلك، فإن الاقتصادَ يكفيه أن يُعيد كل شيء إلى الآني بأن يُسند إلى الحدث سرعةً تجعل منه مكاناً للحضور :فاستهلاك الاستعراض يتحول إلى وهْم التأمل ـ وهْم قويٍّ بقدر ما هو لا معنى له.

إن الاختراع العبقري للسلطة الاقتصادية هو أنْ تغمُرنا بالثُّقْب الذي تحفره فينا وتقيمَ هناك فُرجَة، أنْ تدفعَنا لأن نستهلك موتنا الشخصي ونحنُ مغتبطون .ها نحن في الوقت نفسه الفمُ والقبرُ الذي يجري فيه استعراضُ الأشباح التي تكفينا منذ أن خدرت المخدراتُ الإعلامية كلَّ انبثاق اجتماعي، كلَّ تمرد، كلَّ تفكير شخصي.

لا شك أن هذا العرْض الوجيزَ المبسّط سيبدو متشائماً على نحو مبالغ فيه إن هو لم ينجح في إظهار أن الحرمان من المعنى لا يؤلم، لا يمكن إدراكه ولا رؤيته .لم نتعوّد إلا على سلطات موضوعة بدقة لدرجة أن إكراهاتها تظل بالنسبة لنا سطحية؛ بحيث لا نعرف شيئاً عن سلطة هاربة، يصعب تحديدُ مكانها، تتدخل بلا هوادة في دخيلتنا .هذه السلطة قوية بقوة مجهولة لأننا لا نعرف مصدرَ إحكام قبضتها علينا.

يمكن إرجاع تاريخ التطور الإنساني إلى الطرائق المتوالية التي كان الإنسان يملكها ليُخرج إلى العلن كفاءاته من خلال مضاعفتها .كل شيء يبدأ بنشاط اليد، التي تحرر الفم حتى يقدر على أن يركّبَ الكلام ويعبّر عن التفكير .كل شيء يستمر باختراع الأدوات ثم الآلات، التي تحرر بدورها اليد والجسد لأنهما يُخرجان منها كل المؤهلات التقنية .وفي الحاضر، تُخرج الآلاتُ الجديدة إلى العلن مؤهلاتنا الذهنية...

إن الإنسانَ ـ الفردَ الإنساني ـ صمّم من خلال هذا الصيرورة الطويلة، ثنائيةً اجتماعية، تمثل بالنسبة له ذهناً خارجياً وجماعياً، هو الذي يبقى على اتصال دائم به عن طريق اللغة.

قلت في البداية إن الثقافة هي تفكير الجسد الاجتماعي، لكن لا تفكير بدون ذاكرة .اللغة تحمل هذه الذاكرة وتقدّم في الوقت نفسه مادة التفكير.

ثم طرحت بعد ذلك سؤال : إذا كانت الثقافة بطبيعة الحال لا تنفصل عن الجسد الاجتماعي، فأيُّ معنى للانفصال بينهما ؟ لا شك في أن مؤسسة السلطة تتطابق مع حاجة تصوير علنية التفكير الجماعي في شخص، هو الذي كان في البداية ملكياً وإلاهياً قبل أن يتبع نظاماً ديمقراطياً في مجلس منتخب . فـ«الشيء» العمومي هو في آن علنيتُه وتَمثّله .هذه الخصيصة الثنائية «للشيء الاجتماعي» تسمحُ للدماغ الاجتماعي بأن يتجسّد فيها وتسمحُ انطلاقاً منها بتركيب اللغةِ المشتركة.

والمسألة هي أن هذا «الشيء» العمومي لم يكن، على امتداد التاريخ، مسكناً لتعبير المعنى الاجتماعي، بل كان سجينَ ممثل السلطة الذي عمل، وهو يقلب دوره، على أن يقدم نفسه بمثابة الشيء الذي لم يكن سوى صورتها.

تصبح السلطة شخصية أو «ديمقراطية» بإدخال علنية التفكير الجماعي إلى حميميتها حتى تجعله في ملْكيتها.

والتجديد الكبير هو أن هذه الملْكية تتغير أدواتُها منذ ثلاثين سنة مع تعميم الوسائل السمعية ـ البصرية ودخولها إلى كلّ مسكن .إنها المرة الأولى التي أصبحت فيها قناتا تعبير الجسم الإنساني، العين والأذن، أسيرتيْن في آن واحد لآلة تمنعُ من أنْ تبتعدَ هذه أو تلك عنها .وهي أيضاً المرة الأولى التي لم يعد تعلّمُ اللغة يمرّ أبداً عن طريق مدرسة الأجداد من خلال الأم، بل عن طريق الصلة مع الرغوة الرقيقة للحاضر.

هذه اللغة التي يتم تعلُّمها في الحاضر لم يعُد لها منذ وقت قريب أيُّ ذاكرة، رغم أن التفكير الاجتماعي يتم تعويضُه بالحركة المُميتة للاقتصاد.

هكذا أصبح التمثيل يُسلَّم لنا في البيت جاهزاً لعلنيةٍ يجب على مظهرها أن يقوم بالنسبة لنا مقامَ المتخيل والحميمية.

كل شيء يمكنه بطبيعة الحال، أن يكون مختلفاً، ويمكن للوسائل السمعية ـ البصرية أن تصبح مسرّعةً لتفكير الجسد الاجتماعي، لكن الاختيار العام هو أن يُترك الجسدُ الاجتماعيُّ للسلطة الاقتصادية الذي لا تمثل الثقافةُ بالنسبة لها سوى سلعة والسلعة وسيلة لاستعباد الاجتماعي.

إذا طالت مدة هذا الاختيار، وكل شيء يشير إلى أنها ستطول ما دام السياسي يخضع من الآن فصاعداً للاقتصادي، فإن الثقافة ـ أي علنية التفكير الجماعي ـ سيصبحُ محكوماً عليها بألا تبقى على قيد الحياة إلا كدخيلة للتفكير الجماعي لدى بعض الأفراد، الذين لم يعد لهم سوى أن ينظموا أنفسَهم في جَماعات من الزهّاد .

Les incursions d’Israël

اجتياحات إسرائيل

تصلح كلمة اجتياح، في النشرات الإخبارية الأخيرة لإذاعة فرانس كولتور إذاعة فرنسا الثقافية، لوصف العمليات العسكرية الإسرائيلية في لبنان. هذه الكلمة تشد الانتباه لأنها تستعمل لأول مرة بالمقارنة مع الكلمات التي تستعملها القنوات الأخرى. فمعني الاجتياح حسب معجم ليتْري سباقٌ؛ وبالتالي فان من يقوم به يمر فقط علي الأرض التي يُخَرّبها . ورغم أن هذا التعريف يعود إلي قرن ونصف فهو يصف بدقة عملية إسرائيل باستثناء كون السباق يخرق هذه المرة الفضاء الجوي، ومن ثم فان الخراب يسقط بالدرجة الأولي من السماء.

ويحل معجم ليتري علي الكلمة اللاتينية Incursio التي يترجمها بالغارة. ومراجعة معجم غافيو تعطي معني صدام، هجوم لكلمة Incursio ثم ارتمي علي لكلمة Incursito وانقض؛ هجم لكلمة Incursio . ويقول معجم المترادفات انه لا يجب الخلط بين الاجتياح الذي هو نتيجة الاقتحام المؤقت لمجال ليس في ملكية المُجْتَاح وبين الاقتحام الذي يكمن في الدخول بكل قوة إلي مكان والاستقرار. ان الطيران هو الوسيلة الناجعة للقيام بـ الاجتياح لأنه يرتمي علي هدفه ويعود للتو إلي قاعدته العسكرية. فالدبابات، والفرق الخاصة، والمشاة مجبرون، بالمقابل، علي الاقتحام حتى ولو لم تكن رسميا للقيادة نية الاستقرار. والجيش الإسرائيلي المسمي تساهال يجمع بكل وضوح منذ نصف قرن بين الاجتياح و الاقتحام لينزل بجيرانه أكبر الخسائر.

يبرهن تاريخ المرحلة بالفعل علي أن وجود وسلوك تساهال يجعلان من الاجتياح والاقتحام منهجية للإرهاب الوحشي الذي تتغذي ممارسته بالعمليات العنيفة. يبدأ ذلك من الإغلاق التعسفي دائماً إلي مصادرة الأراضي، ومن تدمير بساتين الزيتون والبيوت إلى الاغتيال الموجّه، ومن قصف البنيات التحتية المدنية إلى قصف المدنيين، ومن اختطاف واحتجاز المسؤولين السياسيين إلي اعتقال وتعذيب أي شخص كان بسبب سوء حظ وجوده في المكان غير المناسب واللحظة غير المناسبة. يتم كل هذا بحجة الحق في الدفاع عن النفس والحق في الأمن اللذين يؤديان إلى انعدام عام للأمن، لا فقط حول إسرائيل ولكن في جميع مناطق الشرق الأوسط.

وأمام هذا الكم الضخم من أعمال العنف، التي لا تنجح إلا في أن تسترجع وتذكر بأعمال عنف أخري ذات مرجعيات للأنظمة الشمولية تبعث علي السخط، يبدو أن مجرد التفكير السليم من شأنه أن يقود إلى أن يُطلَب من السّلم ما لا يُمكنُ للحرب الحصولُ عليه. لكن لا، دولة إسرائيل تتعنت في مواصلة القمع والخوف والتهديد حينما تنتقل الي أعمال هدفُها هو ترهيب العدوّ الذي تقوم في الحقيقة بصنعه. مع ذلك فان هذه الأعمال، التي نحن بصددها تبلغ، هذه الأيام، درجة يصبح فيها ما هو غير قابل للتبرير منافسا للوحشية. وحشية تستعير تكنولوجية حربية تحول المذابح إلي قضية لاإنسانية هي التي تنعتها الأخبار بـ "الأضرار الجانبية".

لا شك أن الحس الإنساني يحتاج إلى الاتصال، إلى الرؤية المباشرة، أو إلى تقابل شخصين وجهاً لوجه حتى يعي القاتل بحق القتل الذي يتصرف فيه.

ويمكننا الاعتقاد في أن هذه الحاجة ليست حالة جندي المدفعية ولا الطيار اللذين يطلقان النار علي هدف ، لكن كيف يمكن لنا أن نمنح هذا الظرف المخفف للجنرالات، للوزراء، ولرئيس الحكومة الذي أقل ما ننتظر منهم هو أن يعرفوا ما يفعلون؟ عندما نقارن خطورة الأضرار بالتبرير الذي يعطيه لها المسؤولون الإسرائيليـــون، نتساءل هل ما ينتصر لديهم هو الكذب أم العنصرية وهم يتسارعون نحو الحـث علي الجريمة.

بلي، جزء كبير من استعلائهم في التنكر للوقائع يستند إلى المساعدة المتواصلة والسلوك المثالي للدعم الأمريكي، الذي عمل بتفوق علي إنجاح الديمقراطية في العراق وأفغانستان. إن جرائم الحرب، وتعذيب السجناء، والمذابح تتغير طبيعتها بعد وصفها مباشرة بالحـــرب علي الإرهاب. بل إنهم يحصلون من هذه الصفة نفسها علي الارتياح. ثم إن ضحايا هذه الحرب ليس لهم الحق بطبيـــعة الحال في وضعـية الضحايا؛ إذ يكفي أن تلصق بك صفة إرهابي حتى تتوقف عن أن تكون إنساناً.

نعاين في إسرائيل منذ سنوات، والشهادات بهذا الخصوص متوافرة، تدريباً علي الاحتقار. علي احتقار الفلسطيني، الذي يُهانُ كل يوم عند نقاط العبور، محروماً من العمل، محروماً من الماء، من الكهرباء، من الطعام. تُساءُ معاملته بسبب نعم أو لا، معتقلا بدون محاكمة... ليست هذه إلا الأشكال الألطف لقمع لا يتردد في اللجوء إلى قذائف المدافع، إلى القنابل، إلى إطلاق الرصاص في غزة أو عند الجدار الشهير الذي يعمل علي تحويل الضفة الغربية إلى مركز اعتقال.

تتلازم خطورة الوضعية التي نشأت علي هذا النحو مع عشرات من القتلى أغلبهم من النساء والأطفال. كل هذا تمت إدانته دون جدوى من طرف مقالات وأعمال وثائقية وكتب، لكن لا شيء يدين التدهور الأخلاقي الذي تخلفه الممارسة المستمرة للعنف لدي الإسرائيليين. إذا كان ثمة احتمال في أن جندي المدفعية والطيار لا يريان ما يفعلان، فان القامع يراه بقوة عندما يترك أشقياء ينتظرون ساعات خلال اجتياز المعابر، عندما يقتحم الأبواب، يحطم الأثاث، عندما يدمر بيتاً بدبابة بيلدوزير، عندما يطلق النار علي أطفال. ولتحمّل هذا التقابل وجها لوجه، يجب أن يكون الشخص مارس الاحتقار لزمن طويل، بل وجعل منه ثقافته. ونحن نعلم الي أي حد يجب أن ننزع صفة الإنسان عن الآخر كي نعامله ككائن أدني.

تنظم الحكومة الإسرائيلية هذه اللاإنسانية والاحتقار العنصري الناتج عنها. وهي تندهش من المقاومة التي تلاقيها في الوقت ذاته الذي تبذل جهدها للقضاء عليها. من هنا تأتي مضاعفة العنف، الذي يؤكد رغبة في مذبحة ضمنية، وسعاراً لعدم إمكانية تنفيذها. هذا السعار يعمي السيد أولمرت وجماعته ما دام يدفعهم إلى القيام بعمل يتعارض مع مصلحة شعبهم الذي هو أعمي بدعايتهم. هكذا، في اليوم الخامس عشر من تدمير لبنان بالقنابل الأمريكية بهدف التحريض علي التبرؤ من حزب الله، المتسبب؛ حسب زعمهم؛ في كل هذا الشر، يكشف استطلاع للرأي أن 87% من اللبنانيين يرون في حزب الله حركة مقاومة تشرفهم.

إن الحماقة السياسية مجرمة. لقد رأيناها في العراق، في أفغانستان، ونحن نراها متحسرين في فلسطين ولبنان. والمفجع أن هذه الحماقة لا تلقي أي معارضةٍ في الغرب الذي يتخلي عن شرفه عندما يبحث لها عن دوافع تستدعي الاحترام. والبلدان العربية لا تفعل أحسن، ولكن لها العذر، بفضل أمريكا دائماً، في أن حكوماتها بعيدة عن تطلعات شعوبها. ولا جديد في إلصاق صفة الإرهابي بحركات المقاومة، لكن، علي المستعملين لهذه البلاغة، التي يبدو أنها لا تبلي، أن يعرفوا أنه لمن الخطير الزج بالمقاومة في اليأس.

لم يكن الشرف مما يلتزم به الدبلوماسيون والتجار، ولكنه كان إلى عهد طويل قاعدة لعب العسكريين. فأي شرف يمكن الحصول عليه من قذف معمل للحليب، من قصف مدرجات مطار مدني أو بنايات السلطة الفلسطينية؟ من المؤسف أن تساهال وجنرالاته لم يسعهم علي الإطلاق تأمل هذا البيت الشعري الكلاسيكي الذي أصبح مثلا يُسْتَشهدُ به في إلحاق الهزيمة بدون مجازفة، ثمة انتصارٌ يفتقد المجد . لم يعد من شرفٍ لإسرائيل سوي لدي بعض الرافضين للأوامر العسكرية الذين كانوا يمتنعون عن ذبح الأبرياء، لكن الوقت قد فات بالنسبة لتساهال. فهذا الجيش المكوّن من النخبة لم يتدرب الا علي سحق الأضعف منه، لذلك فهو يعتبر منذ الآن أجبن جيوش العالم.

Les media l’humiliation

وَسائلُ الإعْلاَم الاحْتقَار

تترك أشكال الاحتقار القديمة مكانَها لشكل جديد ربما كان تركيباً لها، إن هو لم يكن ينقل إلى ذروتها الخصيصةَ المعتادة والثابتة، التي كانت عجرفةُ الهيمنة، وبالتالي عجرفةُ السلطة تعبّر بها عن نفسها . غير أن العجرفة المذكورة، التي كانت واضحةً ومترجمةً بأوضاع، ومواقف، واختصاراً بوضعيات الجسد وليس فقط بالكلمات ووقعها، تهدف اليوم إلى أن تتكتّم حتى تضمن كامل قوة الهيمنة لاحتقار هذه الصفة الإنسانية الأساسية التي هي ـ بالضبط ـ الوعْي .إن الاحتقار لم يعُدْ بعدُ محصوراً في الإهانة، في الإخضاع، في الإقصاء، بل هو يتمثّلُ في ممارسة جميع هذه الأنواع من العنف بفاعلية أكبر تحت غطاء مناورات أصبحت معتادة للغاية إلى حد أن طبيعتها كما أن مفعولها يتمان من دون أن يفطن أحد بهما . هكذا يستطيع النظام أن يحط من القيم التي ما زال مع ذلك يروج لها :الحرية، حرية التعامل مع الذات، احترام الحياة الخاصة، الحق في التربية وفي الثقافة، من غير الحديث عن هذه الملْكية المشتركة التي تسمح بنقل ووجود هذه القيم، وهي، بكل بساطة، لغتنا .فمهاجمة اللغة بمكر معناه التحريضُ على التفسخ المتصاعد لما يضمن، ما هو أبعدُ حتى منَ القيم، تماسكَ الأفراد وينظم علاقاتهم داخل الجسد الاجتماعي . ألا يمتزج هذا الجسد الاجتماعي، من ناحية أخرى، بما يضمن التداولُ حيويته ويصلح، أكثر من ذلك، لأن يحفظ وينشر قوانينه، أخلاقه، أساطيره وتاريخه ؟ فالمكتبة والمعجم هما قلب المجتمع الأكثر عرضةً للإهمال : فنحن لسنا بحاجة لأن نكون منتبهين لقلبه حتى يؤدي وظيفته، لكن العلم يمكن أن يوقف الدورة الدموية ويعوضها بدورة أخرى.

ما يمكن أن يحصل مؤقتاً في المجال المتعلق بالقلب يمكن أن يمارس باستمرار في المجال الذهني : إذ يكفي لهذا آلةٌ غيرُ مؤْذية في الظاهر وذات استعمال يومي، سهْل للغاية يمكن لكل واحد أن يدمجه بطبيعة الحال في استعماله الزمني .هذه الآلة، المسماة التلفزة، مشهورة بتقديم الأخبار، والبرامج الوثائقية، والأفلام والتسليات المختلفة، بما فيها الثقافية، وتقوم بذلك، لكن برأي مسبق يختار الغواية السهلة في الغالب، فيما هو يختلف من قناة إلى أخرى .

ذلك أن البرامج تكون مصحوبـة برسائل إشهارية يحدَّد سعرُها حسب نسبة الاستماع إضافة إلى أن البرنامج كلما كان، كنتيجة لذلك، شعبياً كان ثمن بيع الرسالة أغلى لصاحب الإعلان .تؤدي هذه الوضعية إلى شكل أول من الاحتقار في التعامل مع المتفرج الذي لا يتم إطراء ذوقه إلا بهدف رفع سعر بيع استماعه دون أن ينبّههُ شيء، بطبيعة الحال، على ذلك .وحتى يصبح الاستماع سلعة رائجة، فلا بد أن يجعل ابتذالُه التعاقدَ التجاري غيرَ محسُوس لدرجة أن الشخص الذي نبيعه الرسالة الإشهارية لا يعي بالبيع الذي هو موضوعه .وإنشاء هذا اللاوعي من عمل الصيرورة البصرية التي تشغل جاهدة كلاًّ من العين والأذن وتجتاح عن طريقهما كاملَ الفضاء الذي ينتقل إلى الدخيلة .وبمجرد أن يتدفق المد المضاعف للسمعي والبصري من خلال الحاستين الأساسيتين، الأذن والعين، في نظام إدراكنا وتعبيرنا، يصبح من المحتم أن يستسلم هذا الأخير للانجذاب ثم لا تصبح له بعدُ قدرةٌ ، أثناء هذا الاسترخاء، ليأخذ المسافة الضرورية ويواجه ما يدمّره.

تسمح الصورة الطبية المشار إليها من قبلُ بتشخيص كيف يمكن أن يكون جهاز داخلي موصولاً بجهاز خارجي أثناء عملية جراحية .ولا شططَ في أن نطبق هذه الوضعية العضوية على الوضعية الذهنية التي يحدثها الغزوُ السمعي ـ البصري عندما يملأ مدُّه كلَّ الفضاء الذي فيه تجري عادة أفكارنا، صورنا، ورؤيتُنا .إذ يكفي الضغطُ فجأة على زر حتى يحل محل تمثلاتنا الشخصية عرْضٌ يجري مكانَها بدون مجهود ويدفعنا إلى التوقف عند حركتها .كشف المدير السابق للقناة الفرنسية الأولى عن الهدف الخفيِّ

لهذه الحركة عندما قال إن وظيفته هي أن يخلق «أدمغة جاهزة» للرسائل الإشهارية .لقد أثارت هذه الصيغةُ الانتباهَ لأنها تعبّر بوضوح عن الاحتقار الذي يحجز فيه «المقاولون» العضو الذي يسمح بأن يجعل منا بشراً .إن «الدماغ الجاهز» سلعة يتم قياس كمّها بفضل المتفرجين الذين تباع «جاهزيتهم» بالحسم في أن تدفعهم، وقد تفتحت شهيتهم بالدعاية، إلى استهلاك المنتوج المنصُوح به.

وباختصار، فإن البرنامج الجيد التصميم يفصل الذهن عن أنشطته الطبيعية ويصله، بفضل أصوات وصور ملائمة، بتسلية تشغله بما يكفي لتنطق فيه الرسالة الإشهارية كأنها فكرة شخصية .فالدماغ الجاهز دماغ يكتفي بعكس الرسائل الإشهارية بدلاً من أن يتأمل ويتفكرَ فيها .دماغٌ كهذا، يعكس ولا يفكر، دماغٌ مسطح ـ سطحيته لا كثافة لها لأن الكثافةَ مفرّغَةٌ من كل فضاء داخلي .فالمد السمعي البصري، غيرُ المسرور بالمِلْء، يحوّل ويدمّر .يدمّر حيّزَ الفضاء الضروري للعبة التأمل الاستبطاني، أي للوعي.

فكيف يمكن للدماغ أن يكون جاهزاً إن كان الوعيُ قد احتفظ بسلطة استرجاع الدماغ ؟ يتحكم الاقتصاد في وسائل الإعلام، وهو يحتقر كلَّ ما لا يخضع له .ثم إن له الآن امتياز القدرة على أن يمارس تدميراً متعدداً لا يُرى وبالتالي يصعب تعيينُه .إنها حالة هذا التسطيح للفضاء الداخلي الذي يكاد فضحه أن يُنعَت بكونه مبالغةً مجنونة لأنه، إذا كنا مهيئين لقبول بعض الخسارات الإعلامية التي تتوقف عند تفقير اللغة أو الانتباه، لا يمكن تصوّرُ أن هذه الخسارات تستطيع أن تمتد إلى جهازنا العضوي .صحيحٌ أن وضعية حياتنا الداخلية ليست محددة بصراحة أكثر مما هي العلاقة بين فضائنا الذهني والفضاء البصري محددة . فكيف يمكن البرهنة على أن فضاءنا الأول تكوّن بفعل الفضاء الثاني وهو يستوعبُ الصورَ البصرية في حركة تتجانس على الدوام مع الترميز ثم التجريد ؟ ربما كانت فكرة هذا التكوّن قد انبثقت كردّ فعْل على ملاحظة التأثير التلفزي الذي يكفي أن يستولي على عيوننا حتى يحتل مكان وعينا وفكرنا بإلغائهما . والحديث عن الإلغاء يبدو بدوره مبالغاً فيه، وربما يكون كذلك من غير شك إن كان الاستهلاك التلفزي محدوداً، لكن الإحصائيات تؤكد أن معدل الاستهلاك يتجاوز ثلاث ساعات في اليوم .فليس من المبالغة تبعاً لذلك، ادعاءُ أن أيّاً من المتفرجين الملقَّمين على هذا النحو لا يصل بانتظام ولا لفترة أطول فضاءَه الداخلي بأي نشاط ثقافي أو بصري آخر .وإن نحن أضفنا أن الانتظام في هذا النشاط يرتكز على القبول السلبي لتسلُّسُله، فسيبدو مبرراً أن نسأل عن نوعية التغيير الذي يحصل في الحالة الذهنية كما في حالة الجسد بعد مئات السهرات أمام التلفزيون.

إن كان أحد كبار المسؤولين عن السمعي ـ البصري استطاع أن يصرح بمثل هذه التلقائية أن دوره كان هو إنشاء «دماغ جاهز»، فليس من المستبعد أن يذهب غرورُه، الذي يتضمن التحقير، إلى حد أن يترقب أن آليته يمكنها أن تحقق هذه النتيجة في أمسية واحدة .فهل من الصواب أن نتساءل كذلك عن أيّ تخطيط سري تخضع له برمجة قناة قررت التلاعب بدماغ مشاهديها ...إن كلمة «دماغ» طريقة أخرى لتسمية «الفضاء الداخلي»، لكن له، هنا، ميزةُ أن يعين عضواً شديد التحديد هو الذي كان يُعتبر، في كل الأزمنة، كأنبل عضو من أعضاء جسد الإنسان بامتياز .فمهاجمةُ هذا العضو إذاً مهاجمةٌ للجزء الأساسي لجسدنا حتى يخضع، بعد استعباده، للرسائل التي ستُشكّل شهيتَه على طرازها .وقد يكون الجهاز نفسه للاستعباد في خدمة حزب أو رجل سياسي، لكن لا يجب أن ننسى أن التحول النفعي للدماغ صمّمه إشهاريون ترسخت فكرة الـ«تواصل» لديهم وهُم مقتنعون بأن الاقتصاد هو القيمة الوحيدة والسلطة الوحيدة بخاصة.

الإنسان هو صانع الإنساني لكنه أيضاً صانع اللاإنساني .فاحتقار الآخر مصدر أسوإ أشكال العنف، تلك الأشكال التي تنمّي الوحشية، التي تعذب، أو تنمّي إرادة الإذلال الذي يقصي ويلوث .لقد اخترع هذا الاحتقار على مدى التاريخ ألف وسيلة لاختزال الآخر إلى الحيوانية، وإلى العبودية في البداية، لكن العبد لم يكن يخفَى عليه شيءٌ من استغلال قوة عمله أو ذكائه .والهدف المتبع من لدن الأسياد الجدد لوسائل الإعلام هو في الآن ذاته مماثل وأعتى فساداً لأنه يرمي إلى الإخضاع دون أن يحس الوعيُ بالإخضاع .

هذه العملية مربحة جداً ما دام بالإمكان بيعُ الخاضع مرتين : مرة كمستهلك يجب إغراؤه ولأنه، في مرة ثانيةً، تمّ بالقوة إغراؤه فسيستهلك .فالصورة هي العنصر الجوهري لهذه الصيرورة بسبب أن انعكاسها يغري من غير أن يكون ثمة لزوم لترسيخ هذا المؤثر بالتفكير فيه .الانعكاس هو كل معناه ويستنفد نفسه في الوقت ذاته مع المد الذي يحمله لدرجة أنه يترك المكانَ لإغراء آخر .لا ينفصل هذا المعنى الكاذبُ عن الحركة العامة للاستهلاك : فهو يقدم طُعماً ويختفي : أي أنه يلعب من جديد لعبةَ الحرمان بمجرّد ما يقدم موضوع الرغبة .إنه بالتالي يخلق النهَم .على أنه من الواضح أن الدماغ يجب أن يكون جاهزاً، أي أن يكون مرّ بتدريب يضمن عُبوديته.

Pour Mahmoud Darwich

لأجل محمود درويش

برنار نويــل

تضع وفاة محمود درويش حداً للأمل الذي كان لي في أن تمنح له جائزة نوبل كي تتـوج باسمه كل الشعب الفلسطيني. لم يكن محمود يتكلم دفاعاً عن فلسطين ولا يأخذ مكان فلسطين، بل كان بشكل طبيعي صوت فلسطين : صوتها وليس الناطق باسمها، كما يقال. كلامه لم يكن إلا له، كما أن جسده الفاني لم يكن سوى جسده، لكنه جعل من فنائه حامل مقاومة وتضامن يشهد عليهما كلامه تماماً. وهكذا حقق في ذاته وحدة داخلية تتحدى الظروف والوضع الإنساني وتسيطر عليها، حتى ولو أن اليومي يظل تحت رحمتها. من هنا توجد، لديه، حرية أقوى من قسريات القمع وأقوى من الاختيارات الآنية للسياسة : فهي حرية نقدية تجاه أهله كما هي نقدية تجاه الآخرين. كل هذا لم يعلنه، ولم يطالب به بل عاشه، واندمج، بتؤدة، في شخصيته إلى الحد الذي أصبح محمود درويش، شيئاً فشيئاً، وبغير إرادته، شاعراً نموذجياً. عند ذاك، توقف ما كان نشاطاً خاصاً ومميزاً لشخصيته، أقصد الشعر، عن أن يكون تعبيراً عن ذات فقط مع أنه يبـقى بأكمله شعراً شخصياً. – وهنا يكمن سره الفريد. ليس الالتزام هو ما يفسر التحام الشعب الفلسطيني بشعره، ثم إن شعر درويش أصبح أقل فأقل ملتزماً بالمعنى الاعتيادي للكلمة : فشعره تخلى عن اليومي لصالح ممارسة للغة تكثف طاقتها حتى يُحْيي بها الانتفاضة الأصلية ضد الوضع القاتل الذي شكله الحالي، في فلسطين، هو القمع. إن الشعب الفلسطيني، المتأثر بهذه الانتفاضة، أحس في لغة محمود درويش العربية ظهور معنى ينتشي به، في خضمّ العذاب، إلى أقصى حدود الانتشاء. شاعر كوني، لكن شعبه، وهو يتعرف في كلامه على مصيره، جعل من صوت الشاعر صوته. وأعمال محمود درويش هي الآن **الكتاب** الذي ينتظر فيه الفلسطينيون ـ هذا الشعب المختار الوحيد من الآن فصاعداً بسبب ما يتعرض له من اضطهاد على يد الديمقراطيات المشوهة ـ نهاية المنفى فوق أرضهم التي يملكونها.

ترجمة محمد بنيس